اللّغة من المفهوم التّوليدي إلى المفهوم التّمثيلي والتّداولي

د. ذهبية حمو الحاج

كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري– تيزي وزو، hamoulhadj_d@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2015/04/26 **تاريخ المراجعة:** 2016/03/09 **تاريخ القبول:** 2016/03/22

ملخص

لقد شهدت اللّغة دراسات متعدّدة، انطلقت أوّلها من التّحليل التّركيبي والدّلالي، إلاّ أنّ الوقوف عند هذين الجانبين لم يكن ليلّم بكلّ مكوّناتها التي تلعب دورا حاسما في تحديدها بشكل عام وشامل، وبذلك برزت مسألة استعمال اللّغة في سياقات معيّنة، وهو ما يستدعي كفاءات تنطلق من الكفاءة الذّهنية والفطرية، التي تحدّث عنها تشومسكي وتتجاوزها إلى كفاءات أخرى لا تقل أهميّة. تؤدي المؤهّلات التي يولد بها الإنسان إلى إمكانية التّمثّل والتّأثير في العالم المحيط به، وهو ما يُفضي إلى إثارة أهمية التّداول بالقول والفعل الذي يحتكم في جوهره إلى حسن التّمثّل وإدراك الأشياء والعالم.

الكلمات المفاتيح: لّغة، تّمثّل، نحو توليدي، تداولية.

La langue: de la conception générative à la conception représentative et pragmatique

Résumé

La langue a fait l'objet de plusieurs études dont la première a été l'analyse syntaxique et sémantique, sauf que ces deux domaines ne pouvaient pas permettre de bien cerner tous les éléments qui contribuent à sa définition de manière générale et globale. De là surgit la question de l'utilisation de la langue dans certains contextes, ce qui nécessite un certain nombre de compétences, grâce auquel les humains pouvaient représenter et influencer le monde environnant, et de là résulte tout l'intérêt d'évoquer le rôle de l'échange verbal et de l'acte qui se réfère à la bonne représentation et perception des choses et du monde.

Mots-clés: Langue, représentations, grammaire générative, pragmatique.

Language between the generative conception and the pragmatic representation

Abstract

Studying language from its syntactic and semantic aspects do not always reflect a good understanding of this complex phenomenon. Language use plays a very crucial role in reforming Language as a particular human activity that depends on a set of important faculties, not only innate ones as Chomsky noted, since Language is not a system of sentences we say but it is a set of acts we do to understand, reform, shape, represent and interpret our world.

Key words: Language, representation, generative grammar, pragmatics.

المؤلف المرسل: د. ذهبية حمو الحاج، hamoulhadj_d@yahoo.fr

مقدمـــة

لقد عرف القرن العشرون ظهور مجموعة من الآليات والمدارس اللّسانية، التي قامت بتحليل النّصوص والمدونات وفق مناهج وطرائق مختلفة، ومن بين هذه المدارس نجد المدرسة التّوليدية التّحويلية، التي حاولت استنباط المعنى من النص بطرق توليدية رياضية، ويرجع الفضلُ في وضعِ النظرية النّحويّة التوليديّة، إلى اللّساني الأمريكي تشومسكي N.Chomsky، الذي أقامها على أساسٍ نقديٍّ، حيث تعرّض فيها إلى ثغرات نظرية المدرسة التوزيعيّة، ليقترحَ نظريّة جديدة للبنى التركيبيّة دون حصرها في لغةٍ واحِدة. وكانت سِهامُ النّقد مصوَّبة كذلك تجاه البنيويّة والوصفيّة والسلوكيّة الآليّة؛ ومن بين هذه الآراء نجد اللّساني الفرنسي إميل بنفنيست E. Benveniste، الذي قال: «نشاهد في أيّامنا (الستينيات) جهوداً على منوال تشومسكي تُكرَّس ضدّ البنيويّة. إنّه قلّب الموازين في مقاربته للظّواهِر»[1]، وهو ما يثبت معارضة تشومسكي للبنيوية. والإشكالات، هل استطاعت هذه النظرية تجاوز النظريات السابقة؟ وما هي مظاهر التقاطع بين هذه المدرسة والحقول المعرفية الأخرى؟ ظهرت أوليات اهتمام تشومسكي بالنّحو التّوليدي التّحويلي منذ أن كان طالبا، حيث قدم بحثا حول لغة "بانيني"، الذي درس لغة الكتاب الديني الهندي المقدّس (الفيدا) وبحثا آخر حول الأبنية الصّرفية للّغة العبرية، وقد أفضى إلى كتاب مهم جسّد فيه نظرياته عنوانه "البُنى التّركيبية"، وقد اعتبر فيه أن النّحو التّوليدي لم يعد محاكيا للنّحو المدرسي في المفهوم والأهداف، لأنه لا يستهدف وضع المعايير، التي تصون اللّسان من الزّلل، بل النّحو عنده هو مجموعة من القواعد الكامنة في ذهن المتكلّم، وقواعد يكتسبها من محيطه الاجتماعي منذ مرحلة الطفولة، تسمح له باكتساب لغات أخرى، فهو الذي يقول:" غالبا ما تُوصف المعرفة باللّغة، بأنّها القدرة العملية على التّكلّم والفهم"[2]، وقد قام تشومسكي بتوجيه عدد من الانتقادات إلى المدرسة التّوزيعية بريادة "هاريس"Z.Harris، وتتلخّص هذه الانتقادات في:

– استبدال المفهوم السكوني للّغة بمفهوم آخر ديناميكي.

– إدراك الوقائع فقط على مستوى مقطوعات المورفيمات والفونيمات، بافتراض مجموعة من المستويات الواقعة تحت مجموعة من قواعد التحويل.

– الوصف البنيوي لمادة بحث معيّنة، بسلسلة تصورية على شكل اشتقاقات ذات نمط رياضي (افتراضي– استنتاجي) من العمليات المنظمة.

لقد اعتمد تشومسكي في وضع نظريّته على مبادئ يكمن أهمّها في أن تسعى اللّسانيات إلى إبراز البنى اللّغويّة التي تسمح بتوليد (أي إنشاء وإدراك) عدد لا متناهٍ مِن الجمل انطِلاقاً مِن عددٍ مَحدودٍ مِن القواعِد، ويعبّر الطّفل بواسطة اللّغة ويستعملها في وضعيات معيّنة، وبكيفيات متفاوتة، وهو ما يدعى بالأداء اللغوي أي تحصيل القدرة وإنجازها[3] أي الممارسة.

بناء المعرفة التوليدية:

–**التوليد:** وهو أحد المفاهيم الرئيسية التي جاء بها تشومسكي، ويقصد به القدرة على الإنتاج غير المحدود للجمل، انطلاقا من العدد المحصور من القواعد الواردة في لغة ما، وفهمها ثم تمييزها، والتّوليد ليس إنتاجا ماديا للجمل فحسب، بل هو القدرة على التمييز بين ما هو نحوي وغيره، وهذا بفضل القدرة الذاتية لقواعد اللغة[4]، وتتخذ هذه القواعد شكلا رياضيا، تتجلى من خلال مجموعة من القواعد تدعى قواعد إعادة الكتابة.

–**القدرة:** هي المعرفية اللاواعية والضّمنية لقواعد اللّغة التي يكتسبها المتكلم منذ طفولته، وتبقى راسخة في ذهنه فتمكنه من إنتاج العدد غير المحدود من الجمل الجديدة، إنتاجا ابتكاريا، لا مجرد تقليد ساكن، " فالقدرة ما هي إلا نسق كلي للتمثّل الذّهني للّغة"[5] تسهم في تمكين الفرد من استحضار اللّغة وممارستها بطريقة خلاقة مع كلّ استعمال.

–**التأدية:** مصطلح جاء به تشومسكي، ويعني به: "الاستعمال الفعّال للّغة في مواقف مادية وواضحة... وإنّ نحو أية لغة يفترض أن يكون وصفا للملكة الذاتية الأصلية للمتكلّم السّامع المثالي"[6]. والحقيقة أن القدرة والتأدية وجهان يتكاملان من أجل إنجاز الفعل اللّساني، أي الكلام . فإذا كانت القدرة معرفة بقواعد اللّغة، فإن التأدية هي الانعكاس المباشر لها، إلا أن هذا الانعكاس يتأثر بالعوامل الاجتماعية والنفسية و...إلخ[7] ما يفضي إلى احتكام الأفراد إلى مجموعة من الأنظمة.

– **الإبداعية:** وهي الاستعمال الفردي لنظام اللغة استعمالا ابتكاريا لا مجرد تقليد سلبي للجمل المتداولة بين أفراد المجتمع.إنّها تتمثّل في القدرة على الإنتاج غير المحدود للجمل، انطلاقا من العدد المحصور للكلمات والقواعد الثابتة في ذهن المتكلّم[8]، أي إنتاج صيغ جديدة عند كلّ ممارسة، تختلف عن الصيغ السّابقة والصيغ اللاحقة.

– **المنظور التلفظي:** يتميز بموقف أقلّ تقييداً من موقف البنيوية في تحليل المعنى، أي أنه يتميز بفهم موسع لعلم الدلالة. عند هذا المستوى نرى أنّ لسانيات تشومسكي لا تتجاوز اللّسانيات البنيوية على الإطلاق. فأعمال كاتزوفودور QuatzetFodor، التي عاد شومسكي إليها في الجزء الثاني من نظريته كما عرضها في كتابه: (مظاهر النظرية التركيبية) لا تمثل سوى الاندماج في النموذج التوليدي للتّحليل المدلولي.[9]*قام تشومسكي في أحدث مراحل نظريته بتعديل وجهة نظره حول "المكوّن الدّلالي"، ليهتمّ في نموذجه بظواهر مثل: الافتراض المسبق، والتركيز، والموضعة Topicalisation، وهي إضافات لا تسيء إلى الفرضية التي صاغها منذ عام 1957 والقائلة بأفضلية وضع البنية التّركيبية في أعمق مستوى، أي في نقطة انطلاق الاشتقاقات التي تفضي إلى الجملة.

–**النحوي:** لا تبتعد فكرة النّحوية كثيرا عن المفهوم الذي أخرجه روّاد النّحو القديم بحديثهم عن الكلّيات في الشّكل والمضمون على السواء، كما تقترب كثيرا من نزعة التقسيم، القائلة بالمَقولات النّحوية التي إن صحّ تواجدها في كلّ لغة وفق ما يقتضيه نظامها، فهي ذات نزعة شامِلة كثيرا ما استهدفت فكرة تطبيقها على جميع اللّغات أو على أكبر عددٍ ممكِن منها؛ فيمكن قراءة النحو التوليدي بمفهوم تشومسكي باعتباره تطبيقا للمبدأ السوسوري في السعي وراء القواسم المشتركة بين كلُّ اللّغات.

وقد ذهب أحمد مختار عمر إلى اعتبار رومان جاكوبسون R.Jakobson المؤثّر الأوّل على فكر تشومسكي، وكان ينادي بمبدأ "الكليات اللّغويّة" بما فيها الصوتية، ويرى أنّ الأبنية الصوتية المختلِفة الموجودة في لغات العالَم ما هي إلاّ مجرّد تنوّعات ظاهِرية تخضع لنظام أساسي عام. وقد كانت هذه الفكرة هي الجوهر، الذي استند إليه منهج تشومسكي، الذي يدّعي أنّ هناك كليات لغوية في مجال التّركيب، وبذلك كان لتشومسكي فضل تطوير هذه النّظرية وإثرائها وتعميقها[10]*. هكذا يمكن ترجمة مجهود تشومسكي حسب بعض الآراء بالقول إنّه أراد إسقاط مبدأ الوصف وإقامة مبدأ التفسير والتعليل مقامه، ونظرا لجهوده المبذولة في سبيل صياغة ما أسماه بالنحو الكليّ، استطاع أن يكسبه لاحِقاً تسمية النّحو التّوليدي وذلك إثر النظريّة القائلة بالقدرة اللّغويّة مقابِل الأداء اللّغوي. وإذا شئنا الوقوف عند هذين المفهومين سنضطر إلى الرّجوع مرّة أخرى إلى فرديناند دي سوسير F.Desaussure،

الذي أوجد ذات الثنائية بتسميات مختلفة: وعلى كلّ حال يبقى هذا رأي بعض الباحِثين الذين لم يجدوا في المفهومين، اللّذين "أعاد تشومسكي صياغتهما" إلاّ صدى لما بلوره دي سوسير مع اختلاف في التّسمية، فاستعمل أحدهما مصطلح اللّغة ولم يضف الثاني عليها من حيث المفهوم سوى التّغيير، الذي طرأ إثره على التّسمية التي أصبحت (القدرة اللّغوية)، والأمر ذاته مع مفهوم (الكلام)، الذي جاء به دي سوسير في إطار ثنائياته التّقابلية، وفي سياق ترتيب أمور علمه الجديد، أي اللّسانيات العامّة، لنجده عند تشومسكي يحمل عنواناً آخر هو (الأداء اللّغوي)، فهكذا يمكِن للسّائل أن يسأل: إذا كان الأمر على ما سبق وصفُه فماذا كان إسهامُ تشومسكي يا ترى ؟

لقد أظهرت المدرسة التّوليدية التّحويلية بما لا يترك مجالا للشك أنّ للإنسان قدرة هائلة على التصرف في اللّغة وتمثله إياها خير تمثيل. لقد استفاد تشومسكي من العلوم الرّياضية وهذا دليل على أن اللّغة تمثّل محطة التقاء عدة علوم ومعارف، والحق أنّ تشومسكي يمثّل " ثورة " حقيقية لأنّه قام بتقويض الدّعائم، التّي يقوم عليها علم اللّغة الحديث، وأقام بناء آخر يختلف في أصوله لاختلاف نظرته إلى " طبيعة " اللّغة [...][(11)]التي تحوّلت إلى خطاب بمفهوم إميل بنفنيست.إنّ ميدان تحليل الخطاب شاسع يستحيل تفسيره من خلال مدرسة أو اتجاه واحد فقط، والكثير من المفاهيم التي جاء بها تشومسكي في حقيقتها، سالفة الذّكر عند العلماء العرب خاصة ابن خلدون الذي أفرد بحوثا عدة لما دعاه بالقدرة، وفتحت بابا على دراسات معرفية جديدة تُفيد الكشف عن اللّغة الإنسانية وأسرارها.

المعرفة والخطاب:

إنّ السؤال المتداول عادة يخصّ معرفة كيفية اشتغال قدراتنا الرّمزية بالمصاحبة مع التطوّرات الخارقة للإعلام الآلي وأنماطه، والتطوّر الذي حقّقته البيولوجية والعلوم العصبية، قد أثارت من جديد المحاولة القديمة لتحليل سلوكاتنا بطريقة ميكانيكية، وكذلك تكيّفاتنا وسيرورة فكرنا، وقد ظهرت هذه المحاولة عند كلّ من ديكارت Descarte، وهوم D.Hume، ولامتري La mettrie، وهوبز Hobbes بالخصوص، الذين يتبنون مقولة "ليس الاستدلال شيئا آخر سوى فعل الحساب"، فكلّ شيء يحدث وكأنّ تعقّد الظواهر اللّغوية يُشجّع البحث عن أصل يضمن العمل على أسس محدّدة مسبقا، وبالتالي تتموقع في مستوى النّظام المركزي من المخّ*، وتصبح معالجة الأنظمة المحيطية ومن بينها اللّغة، التي نحكم عليها بالسّطحية متلائمة في حدود ما يمكن تحديد هذه الظواهر، باعتبار أنّها منبثقة من مستوى النظام المركزي (فودور J.fodor 1983، راي جاكندوف R.Jackendoff 1987).

ومن هذا المنطلق، يمكننا افتراض سلسلة من الوحدات المعرفية، القابلة للتأويل مباشرة إلى "أنظمة" من الفعل والسلوك –ومنها اللغة–، إنّها وحدات تعمل تقريبا بالتّوازي، ولكنّها مرتبطة كلّها بالبنى العصبية في خضمّ "النّظام المحيطي" (فودور1983). تقدّم هذه الفرضية ميزتين: من ناحية، يمكن للسيرورة المعرفية أن تعالج بمعزل عن بعضها بعضا، وترتبط هذه المعالجة بتحليل الطريقة، التي تعبّر بها بمصطلحات "الوظائف"، "المواد"، أو "الاحتساب"، ومن ناحية أخرى يمكن افتراض وجود "علاقات دلالية" مباشرة بين الملاحظات والصياغات النّظرية أو المفهومية، بالتموقع في المفهوم الكويني Quine (1953)، وبافتراض عدم وجود الاختلاف في المسارات النفسية المرتبطة بالناحية العلمية أو الاعتقادية.

إنّ الانتقال المباشر بين ما هو إدراكي (القابل للوصف) والمفهومي أكثر قابلية للدحض، ولكن يبقى السؤال حول أنواع العلاقات وأنماط التّفاعل بين مختلف "الوحدات"المكوّنة على أساس أنّها مقطّعة لا نعرف كيفية ربطها إلا بالعودة إلى تموضعها المجرّد في خضمّ القشرة الدماغية، وفي هذا الصدد يتحدّث تشومسكي عن أهمية تفاعل

الأعضاء في الدّماغ بهدف إمكانية تحديد الأبنية الدلالية والأبنية النّظمية، فيقول: "...يمكننا أن ننظر إلى الذّهن على أنّه نظام من الأعضاء الذّهنية، ولأحد هذه الأعضاء ملكة اللّغة، ولكلّ عضو من الأعضاء بنيته ووظائفه الخاصّة...ويقيم علاقة تفاعلية مع الأعضاء الأخرى المحدّدة بيولوجيا، وهو ما يقدّم الأساس لحياتنا الذّهنية"[12]. وبطريقة ما يحتفظ مثل هذا النّوع من الموقف بنوع من الاعتقاد الفطري الخاضع دائما لهذه الرؤية الديكارتية للأشياء، التي يفرضها تشومسكي لمدّة طويلة. وفي الحقيقة، فإنّ مسألة التسجيلات في الإطار العصبي لأنظمتنا الرّمزية، التي يعتقد أنّها أكثر تعقيدا للمعالجة، أو أنّها مجازية، مسلّمة تسمح بالعودة إلى التحليلات التي ترتكز على الوظائف العملية، فكيف للنّظام "الموضعي" أن يؤثّر ويسمح لنا بالاشتغال دون أن نأبه لما يمكن أن يكون عمليا، بمعنى ضمان الانتقال من وحدة إلى أخرى أو من نظام إلى آخر.

وبذلك يذهب راي جاكندوف R.Jackendoff إلى القول بوجود الرّوابط بين المعلومات من طبيعة فونولوجية ثمّ تركيبية، وتأتي في الأخير المعلومات المفهومية المنتجة للتّركيبات الدلالية، وبالضرورة فإنّ الدّلالات "مرمّزة ذهنيا"، وقادرة على التفكّك دون أن تكون هناك مستويات للتّرميز بين ما هو دلالي وما هو تداولي، وبين تكوين المعنى وتفعيله من خلال وضعيات محدّدة، وهو ما يسمح في النّهاية بـ"التّرميز" الخاص بهذه الوضعيات وأصناف الموضوعات أو الأحداث التي ستسمح بتحديدها، يذهب راي جاكندوف إلى أنّ البنية الدّلاليّة والبنية التّصوّرية هي في مستوى التّمثيل نفسه، فأيّ نظرية لبنية اللّغة الدّلالية، هي بحكم طبيعتها نظريّة لبنيّة الفكر[13].

وهنا يشير رأي جاكندوف إلى أنّه لا يدرس اللّغة وإنّما أنماط "معالجة المعلومة"، مثلما يعلن في 1974، أنّ في كلّ نشاط لغوي مهما كانت طبيعته إنتاجيا أو تأويليا، تقوم الذّات باستدعاء المعطيات المخزّنة في الذّاكرة، والاستجابة إلى تركيب مزدوج: التّركيب النّاتج عن المكوّن الدّلالي، والتّركيب النّاتج عن المكوّن المنطقي. وبعد هذا الإثبات، الذي قام به جاكندوف، نجد مارفينمنسكي Minsky ذاته وآخرين قد طوّروا سلسلة من الأعمال تنضوي تحت ما يدعى بالذّكاء الصناعي، وقد عُرّف هذا الأخير على أنّه دراسة التّطورات التي تسمح بجعل الآلة ذكيّة، وهو ما يعبّر عنه مرفين منسكي[14] بعلم "برمجة الحاسوب" لينجز مهام تتطلّب ذكاء عندما تنجز من قبل الإنسان، وهو ما لخّصه حسان الباهي في إشكالية المعرفة، إذ يقول:"...إنّه فرع من المعلوميات الذي يهتمّ بجعل السلوك الذّكي آليا، أي يسعى إلى تمثّل المعرفة الإنسانية وصورنة الاستدلال"[15]. لقد كانت مشاكل التّمثيل محلّ نقاشات في إطار الفلسفة، إلا أنّنا لن نتّخذ هذا التوجّه، وإنّما سوف نعتبر التّمثيل غير منفصل عن مفهوم "التواصل" بمعنى "النشاط الرمزي" المرتبط بالعالم وبالآخر. ويكون التّمثيل تواصليا من جهة، وتأثيريا من جهة أخرى، بمعنى خلق أو تنميط النّشاطات، التي من الضروري أن تكون حاملة للموضوعية، تتمكّن من إيصاله، والتّمكّن من الاشتغال عليه. وما يستهدفه التّمثيل هو ضمان العلاقة بين نظامين من الموضوعات الحقيقية والذّهنية، يمثّل أحدهما الآخر، فبناء تمثيل شيء ما يعني محاولة تصوير فكرة ما أو صيغة شيء ما بطريقة منظّمة، ثمّ التّمكن من تخزينها، ومعالجتها، وإثارتها، وإيصالها، والعمل ثانية (لاحقا) على هذه الفكرة أو هذه الصيغة، أو على هذا التّمثيل.

هناك صيغ من التواصل، وبالخصوص تلك الناقلة لتمثيلات ضمنية مثل الهيئات وتقنيات الجسد، ولا يوجد إلا نوعان من الرسائل، "الصور" من جهة، و"اللغة" من جهة أخرى، إذ يسمح هذان النظامان المشتركان والمألوفان بالتأثير في المراجع، مثلما يسمحان بتمثيل الحقائق/الوقائع والمعاني.اليوم معظم الأنظمة المرتبطة بالذّكاء الصناعي، تحترم بشكل عام البنية الهندسية ذاتها والمؤسّسة على ثلاثة مكوّنات: وحدة المعارف، ووحدة

الاستنتاج، ووحدة المراقبة. تتطابق وحدة المعارف مع مجموعة المعلومات المقدّمة لنظام معيّن، والمقدّمة إلى الكون إلى حدّ ما، ووفقا لهذه المعلومات يمكن لوحدة الاستنتاج بناء معارف جديدة، بطريقة استنتاجية، بينما تُوظّف وحدة المراقبة في توجيه السيرورات الاستنتاجية نحو هدف معيّن، ومثل هذه الهندسة خاضعة للتغيّر، وذلك حسب نموذج تمثيلات المعارف، إذ تبنى حسب المراحل المختارة للاستنتاج.

- **وحداتية الذّهن: الذّهن، التطوّر والوحدات**

إنّ وحداتية الذّهن نظرية خاصة بالفيلسوف جيري فودور J.Fodor*، الذي استوحاها من نعوم تشومسكي، وهي نظرية أكثر تداولا في مجال العلوم المعرفية، وحسب هذا الطرح، فإنّ الذّهن البشري يحتوي على عدد من الوحدات المختصّة بتنفيذ نوع من الوظائف المعرفية. بالنسبة لفودور Fodor، تعمل هذه الوحدات بطريقة آلية، وبطريقة لا واعية، وبسرعة، وبالتوازي، وبمعزل إحداها عن الأخرى، مقابلة بذلك النّظام المركزي الواعي، المراقب والبطيء والتعاقبي، وينبغي معرفة أنّ عمل هذه الوحدات فطري، متأثر ببعض الثوابت، ولكنّها غير ناتجة عن التّعلّم، أو أنّها لا تكتسب عن طريق التّعلم، يقول جيري فودور J.Fodor: "إنّ مصير المعلومة الفطرية هي التّفاعل مع المعطيات اللّسانية، التي يملكها الطّفل، وعلى هذا الطّفل أن يكون حسابيا"[16]، فيبدو أنّ فودور Fodor يؤكّد على أهمية الظّاهرة الاحتسابية عند الطّفل، الذي ينبغي عليه الاستعانة بما هو لساني وفطري حتّى يتمكّن من تحديد المعلومة ذهنيا.

وهناك نموذج من الوحدات خاص بمعالجة اللّغة، توجد في خضمّه وحدات فرعية (دلالية، وتركيبية، وسصمورفولوجية،...) مستقلة عن بعضها بعضا، ومثل هذا التراكب Encapsulation في خضم وحدة اللّغة ذاتها تفسّرلنا القدرة على الحديث والقيام بأشياء أخرى في الآن ذاته، أو الحكم بصلاحية تركيب الجملة الشّهيرة، التي اقترحها تشومسكي: "الأفكار الخضراء تنام بعنف"، في الوقت الذي لا نجد لها أيّ معنى.شكّلت هذه النظرية موضوع النقاش الحاد والخاص بالتّحديد العملي لهذه الوحدات على امتداد تخصصاتها أو استقلاليتها، وتعمّمت هذه الأفكار عن طريق علم النفس التطوّري، الذي يرشّح وجود وحدات مخصّصة لكلّ مجال معرفي، ومثل هذا التّطوّر لم يكن مقبولا من قبل تشومسكي، ورفضه جيري فودور في كتاب حديث له بقوله إنّ الذّهن لا يشتغل بهذه الطريقة[17] إذ أنّ تشومسكي يطرح فكرة وحداتية أو مجزوئية الذّهن، وحدث الاعتقاد أنّ أنظمة ذهنية مختلفة منظّمة حسب مبادئ جدّ مختلفة تؤدي طبيعيا إلى تحديدها، على أنّها ليست نتاج آلية عامّة للتكلّم والنّمو، وهو ما يفترض أنّ الحالة المبدئية للذّهن محدّدة منذ الولادة، وهو ما يصيغه جيري فودور عندما يعاتب تشومسكي فيقول:"يكمن الاعتقاد الفطري لتشومسكي في مجموع المعلومات، بمعنى أنّ الطّفل يُولد وهو على علم ببعض الأشياء حول الخصوصيات العالمية للّغات الإنسانية المحتملة. إنّ تفاعل هذه المعرفة الفطرية مع مدوّنة من المعطيات اللّسانية الإنسانية، هي التي تُفسّر تطوّر القدرات اللّسانية"[18]. عُرف جيري فودور J. Fodor بالنظرية الاحتسابية للذّهن، وأكثر شهرته تعود إلى محاولته حول وحداتية الذّهن (1983)، أين يعتبر النّظام المركزي في المخ مشكّلا من وحدات، ولكن هذه الأنظمة المركزية ليست وحداتية، وقد توصّل في هذه المحاولة المهمّة إلى نتيجة مفادها أنّ اشتغال الذّهن لا يمكن أن تقتحمه العلوم المعرفية في الوضع الحالي وبهذه الوسائل الكشفية، لأنّه موجود في أنظمة مركزية غير وحداتية، حيث الآليات مجهولة. والملاحظة التي يمكن تقديمها حول الوحداتية، هي عدم فهمنا لماذا يزيح فودور "السيرورات المركزية" للمعرفة، ونظامها الوحداتي، في حين يعوّل على إدماج اللغة؟

علاقة الذّهن باللغة: المفهوم الوحداتي

يعدّ جيري فودور (1986) Fodor المقترح الأوّل لفكرة وحداتية الذّهن (مجزوئيته)، وهي فكرة أخذها من فرانز جوزيف F.Joseph مؤسّس علم النّفس الملكات، والذي يعتبر أنّ كلّ قدرة ذهنية تطابق "كفاءة" مستقلة عن الكفاءات الأخرى. وحسب جيري فودور، يشتغل الذّهن البشري كنظام تراتبي، حيث تتمّ معالجة المعلومة على مراحل متواصلة، ودُعيت بـــ: المحوّلة، والنّظام المحيطي، والنّظام المركزي. إنّ الأنظمة المحيطية وحدات/ أجزاء غير قابلة للتّراكب والتأثير، أي أنّها لا يمكن أن يحدث التواصل بينها مباشرة، وهي من طبيعة آلية، وبتعبير آخر، لا يمكن إحداث التّراكب مع هذه الوحدات مادامت إلزامية في معالجة المعلومة، وتتميّز عمليات هذه الأنظمة بالسرعة، وتقدّم نتائج سطحية، وبصفة عكسية، وحسب جيري فودور J. Fodor، فإنّ النّظام المركزي أكثر تعقيدا وغير متخصّص.يبدو أنّ لفودور Fodor نظرة تشاؤمية حول فهم وظيفة هذا النّظام، علما أنّ هذا الأخير يتمّ فيه تأويل المعطيات الآتية من مختلف الأنظمة المحيطية، إضافة إلى الاستدلال، الذي نجده في الحياة اليومية أو في البحث العلمي الأكثر تعقيدا، رغم أنّه يمكّننا من رؤية العالم والتّصرّف فيه بطريقة إرادية وبجميع الحواس، كالسّمع والبصر واللّمس وغيرها من الحواس...[19] وبذلك فإنّ جيريفودور J. Fodor ينظر إلى الذّهن على أنّه وحداتي جزئيا. وفي حقيقة الأمر، فإنّ الأنظمة المحيطية هي الوحيدة المكوّنة، وتشتغل باعتبارها وحدات تراكبية في حين لا يشتغل النّظام المركزي بالطريقة الوحداتية، ولكن بطريقة كليّة على أنّها نظام معقّد بكامله.

يأخذ كلّ من سبربر وولسن D.Sperber, D.Wilson (1989) بمفهوم جيري فودور J. Fodor الوحداتي للذّهن، وبالنسبة لهم فإنّ اللّسانيات تتطابق مع وحدة/جزء محيطي مخصص في **معالجة** المعلومات اللّسانية، ومثل هذه المعالجة السّطحية لمثل هذا النّوع من المعلومات سيحلّل ويثرى بمجموعة من الوحدات، التي يقال عنها وحدات مفهومية. تتطابق هذه المجموعة مع شبكة من الوحدات، التي تكوّن النّظام المركزي، الذي تحدّث عنه جيري فودور Fodor، وبالتالي ينظر سبربر وولسن إلى الذّهن البشري على أنّه نظام وحداتي بصفة مطلقة.

- **المظهر الاحتسابي التمثيلي للذّهن:**

في العلوم المعرفية من النّوع الاحتسابي، يدرك الفكر باعتباره وحدة حسابية مؤسّسة على العمليات الأوّلية من نوع تسلسلي، تتحقّق هي ذاتها بفضل الخصوصيات التّركيبية لمكوّنات اللّغة. وبالتالي، فإنّ هذه العمليات الأولية تنجز وفق حالات ذهنية من نوع قصدي، وبتعبير آخر، يكون الفكر نتاج اجتماع أو اتصال تركيبي لمجموعة من المواقف الجملية، التي تضع الفرد في علاقة مع جملة ما، مثل: "يعتقد محمد أنّ س"، الجملة التي تستلزم أنّ لمحمد علاقة اعتقاد مع الجملة، وبالتالي يتطابق هذا النّموذج الاحتسابي مع القدرة التّكرارية للذّهن، ويتطابق النّموذج التّمثيلي مع قدرة الذّهن الدلالية. يستندكلّ من هوسر M.D.Hauser، ونعوم تشومسكي N.Chomsky، وفيتش M.T.Fitch على المفهوم الوحداتي للذّهن المعروضة سابقا لتفسير وظيفة اللغة وشرحها، وحسب هؤلاء الباحثين تتطابق وحدة اللّغة مع كلّية لغوية بالمعنى الواسع، والذي يتشكّل من ثلاث وحدات فرعية:

1- نظام حسّي–حركي

2- نظام مفهومي– قصدي

3- آليات تكرارية

تسمح هذه الأنظمة بتفاعلها بإنشاء كليّة لغوية خاصة بنوع معيّن، ينطلق هؤلاء الباحثون من فرضية أنّ النّظام التكراري، المدعو بكليّة اللّغة بالمفهوم الضيّق خاص بالكائنات البشرية. إنّ وحدة كليّة اللّغة تسمح للإنسان بإنشاء عدد لا متناه من العبارات انطلاقا من مجموعة محدّدة من العناصر*، وتكون قد تطوّرت لأسباب أخرى غير السّبب اللّغوي. ومن بين هذه الأسباب نجد أنّ وظيفة اللّغة هي تمثيل العالم[20]، حتى يقدّم فيه الأحسن، فتشومسكي يتصوّر أنّ اللغة نظام قويّ يسمح بالتّمثيل والتأثير في العالم، وهذا النّظام الضيّق الجديد يقوم بتغيير التّفاعل بين الوحدة الحسّية– الحركية والوحدة المفهومية– القصدية، وبهذا الصنيع يقوم بإنشاء الاشتغال ويُحدث قوّة خاصّة بكلية اللّغة في المفهوم الواسع للنّوع البشري.

- **تطوّر الكفاءات التداولية:**

لقد جاء كلّ من فيقوتسكي Vigotsky وبرونير Brunner بمفاهيم أساسية ومهمّة في دراسة اكتساب اللّغة، وهي مفاهيم تسمح بالكشف عن المشاكل اللّغوية والتّواصلية عند الطفل وطرائق معالجتها. يذهب فيقوتسكي Vigotsky إلى أنّ الطفل بين مرحلة الاكتساب ومرحلة المعرفة، يمرّ بمرحلة تدعى بالمنطقة الأدنى للتّطوّر، وحسب فيقوتسكي هناك هيمنة مسبقة للعوامل الاجتماعية في التّطوّر اللّغوي، وتتطوّر الوظائف العليا مثل وظيفة اللّغة في التّفاعل مع الآخر. يعتقد فيقوتسكي أنّ تطابق كل فكر مع الاستخدام الخاص بالتفاعلات بين العوامل، يتمّ في مرحلتين:

1- هناك أوّلا ارتباط / تناسق بين الذّوات، حيث ينجز التعلّم /الاكتساب بوساطة شخص بالغ في وضعية تواصلية لا تناظرية.

2- هناك بعد هذه المرحلة استبطان هذا التناسق، حيث يكتسب الطفل استقلاليته باعتباره قادرا على تحقيق أشياء دون مساعدة من البالغ.

يبدو حسب فيقوتسكي Vigotsky أنّ الاكتساب اللّغوي عند الطفل يتمثّل دائما في الانتقال من المرحلة النّفسية الخارجية إلى المرحلة النّفسية الدّاخلية، حيث تلعب العلاقة اللاتناظرية بين الطفل والبالغ دورا مركزيا، وحتّى تولّد المرحلة النّفسية البينية استبطانا بشكل فعّال، ينبغي على الطّفل أن يتموقع في الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين، أي في المنطقة القريبة من التطوّر. وتتطابق هذه المنطقة مع الحدود الفاصلة بين امتلاك القدرة وعدم امتلاكها، ومن هذا المنطلق يمكن الكشف عن الاختلاف بين قدرات الطفل عندما يكون بمفرده، وعندما يخضع لمساعدة البالغ. ومن خلال ما طوّره فيقوتسكي Vigotsky في هذا التّوجّه، يتوصّل إلى أنّ الهدف من اللغة يكمن في التّواصل، في حين يرفض مثل هذا الموقف كلّ من هوسر وفيتش، وهوسر وتشومسكي 2005، إذ يذهبون في تصوّرهم إلى أنّ اللّغة قد تطوّرت نحو تمثيل أفضل للعالم، وليس نحو التّواصل، وتسمح بالتأثير فيه بشكل فعّال، وبذلك هناك تقارب من فكرة هدف التّواصل لاكتساب معارف جديدة بمفهوم سبربروولسن D.Sperber, D.Wilson 1989.

- **مفهوم الإفادة أو الوجاهة:**

لقد واصل سبربر وولسن D.Sperber,D.Wilson عمل بول جرايس P.Grice 1979، بتطوير المظهر الاستنتاجي والإشاري للتّواصل، من حيث إنّه يوجد تواصل إشاري استدلالي عندما يُبلّغ شخص ما شخصا آخرا بواسطة عمل معيّن مقصده متمثّل في إبلاغه معلومة معينة[21]. فعلا، طوّر سبربر وولسن مفهوم التّواصل الاستنتاجي–الإشاري بالتّركيز على مفهوم الدّلالة غير الطبيعية لجرايس P.Grice، وحسبهما كلّ تواصل ناشئ بين عدّة عناصر يعتبر تواصلا. وبهذا المعنى، فعلى المتلقّي التّعرّف على قصد المتكلّم في مشاركته المعلومة،

وبعد الاعتراف بالقصد يمكن للمتلقي الانطلاق من استدلال يسمح باكتساب معلومة جديدة مقدّمة من قبل المرسل/ المخاطب، وبذلك يتكوّن كلّ تواصل من مظهرين: مظهر إشاري ومظهر استنتاجي.

ينطلق سبربر وولسن D.Sperber, D.Wilson من فرضية أنّ هدف كلّ نشاط معرفي يتمثّل في بناء وتعديل التّمثيلات، التي يملكها المتكلّم حول العالم المحيط به، وهي الفرضية نفسها التي يعتمدها تشومسكي إذ يقول:"إنّ الأنظمة الإدراكية نشأت بتفاعل التّجربة مع طريقة الكائن الحيّ في بنائها ومعالجتها، بما يشمل الآليات التّحليلية والمحدّدات الجوهرية للنّضج والنّموّ الإدراكي..."[22]. وبالموازاة، يتمثّل هدف التواصل في إضافة معطيات جديدة إلى تلك التي اكتسبها الفرد مسبقا، وهي معلومات ينبغي أن تكون صحيحة في حدود ما تمثّل حدثا أو وضعية موجودة أو تلك الموجودة في العالم.لقد فكّر سبربر وولسن D.Sperber,D.Wilson إثر هذه الظروف في إمكانية جمع جميع بديهيات المحادثة في بديهية واحدة وهي بديهية التعاون. فعلا، حتى تتحقّق الوجاهة في كلامنا، ذلك يفترض تقديم العدد الكافي من المعلومات الضرورية (مبدأ الكمّ)، والتّحلي بالصدق (مبدأ الكيف)، والالتزام بالوضوح (مبدأ الأسلوب). لم يستبدل سبربر وولسن D.Sperber, D.Wilson بديهيات المحادثة ومبدأ التعاون ببديهية واحدة، فقد طوّرا آلية أكثر دقّة مؤسسة على مفهوم الإفادة المرتبطة بقصدية مزدوجة (إخبارية وتواصلية)، وبتواصل إشاري–استنتاجي، بطريقة تسمح الإفادة بتحديد المعلومات، التي ستجذب المتلقي في لحظة معيّنة.

يؤدي الفعل التواصلي الإشاري–الاستنتاجي للمتكلّم إلى أن يبحث المتلقي عن دلالة هذا الفعل انطلاقا من محيطه المعرفي، وهذا البحث الذي يقوم به المتلقي عن الدلالة مسموح به بفضل استدلال مؤسس على مقدّمات منطقية آتية من معارف يمكن الوصول إليها والتّمخّض عن طريقها إلى نتائج محدّدة.إنّ هذا النّمط الخاص بالاشتغال المعرفي منظّم باستراتيجية تدعى باستراتيجية الثمن/الفائدة، بفضلها يتمّ الحصول على أقصى ما يمكن من الآثار بجهد أقل، وهذا يدلّ على إحصاء قصد المتكلّم بطريقة واعية أو غير واعية وآلية، بمعنى الأثر، فكلّما تطلّب التواصل الإشاري–الاستنتاجي جهداأقلّ لتأويله، يكون هذا الفعل مفيدا/وجيها، فعندما يحدث التّوازن بين المجهودات والآثار المحقّقة يتوقف المسار الاستنتاجي بذاته.إنّ الاشتغال في سيرورة الفهم مؤسّس على مبدأ التّعاون، وتسيّر القدرات الاستنتاجية بالاستراتيجية ذاتها (الثمن/الفائدة)، والمتمثّلة في التصنيف الأقصى للمقدّمات المنطقية في خضم المحيط المعرفي الخاص بالمتلقي. تتطابق هذه القدرات الاستنتاجية مع استدلال مؤسّس على كفاءات معرفية–اجتماعية، بمعرفة أنّ لكلّ كفاءة معرفية حركة تطورية، مثلما تخضع الكفاءات التّداولية للمسارات التّطورية.

إنّ التّواصل بالمفهوم الحداثي، تواصل يستنتج ببعض النّماذج المختلفة تماما عمّا اقترحه سوسور وجاكبسون، لأنّ العودة إلى الجانب المعرفي قد أفرز أفكارا جديدة تُحيل إلى وظائف أخرى غير وظيفة التّواصل، وكانت العودة إلى نموذج الاستنتاج ونموذج التأويل، اللغة في النموذج الأول تتحدّد في وظيفة التّمثيل إلى جانب وظيفة التّواصل، وفي النموذج الثاني تتحدّد اللغة انطلاقا من العمليات الذّهنية المؤطّرة لمعالجة المعلومة، فسبربر وولسن يتحدثان عن النّظام المحيطي والوحداتي إلى جانب النّظام المركزي غير المتخصص وغير الوحداتي، الذي يحيل إلى المرجعية التّداولية.

الهوامش:

1- E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, Editions Gallimard, Paris 1974, Editions Ceres, Tunisie 1995, p 15-16.

2- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة وتعليق وتقديم محمد فتيح، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1993، ص 64.

3- R. H, Robins, linguistique générale, Une introduction, Armand Colin librairie; paris 1973, p 251.

4- الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1968، ص 10.

5- N.Chomsky, Aspect de la théorie syntaxique, traduit par Jean Claude Milner, Edition de Seuil, 1974, p 13.

6- R. Eluerd, pour aborder la linguistique, Edition ESF, 5edition,tome1, p 105.

7- Ch.Nique, Initiation méthodique à la grammaire générative, librairie Armand colin, paris, 1997, p 18.

8- ينظر: عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1986، ص 144.

9- وتبدو علاقة التّحليل المدلولي بتحديد الحقول الدلالية في مراعاة المُحلّل لهذه الأخيرة بهدف الوصول إلى تعيين السّمات المشتركة بين مفهومين مثلا، وأولى خطوة يتّخذها الباحث لتحديد العناصر المدلولية هي استنتاج مجموعة من المعاني بصورة مبدئية يفترض أن تكون الصلة قوية بينها، بحيث تشكّل مجالا دلاليا خاصا نتيجة تقاسمها عناصر تكوينية مشتركة. والتحليل الدلالي أبعد ما يكون عن أن يكفي لإيضاح معنى الإنتاج اللغوي الحقيقي، أي ذلك الإنتاج غير مفصول سطحياً عن شروط الإنتاج، وهو ما يحيل إلى التّلفظ والملفوظ عند بنفنيست. ينظر: E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, T1, Paris 1966, p 77.

10- أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللّغة الحديث، عالم الكتب، مصر 1995، ص 161.

• وهي ذات الفكرة التي كرّسها المختصّون في ميدان الترجمة لتعليل أطروحة الترجمة الممكنة أو قابلية الترجمة في مقابل الأعذار، التي اعتمدها أهل الترجمة المستحيلة. مثلاً على مستوى التّرجمة، ثمّة تطبيقات، كأن يقول مؤيدو دي سوسير والمتأثرون باستحالة التّرجمة المرتبطة بمفهوم القيمة اللّغويّة، الّذي يُفسِّر نسبيّة الدّلالة، لكن التّرجمة استرجعت مشروعيتها في إطار التقاء اللّغات البشرية في الكليّات المشتركة. يُنظَر: جفري سامسون، مدارس اللسانيات، التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السّعودية، 1997، ص 01.

11- عبده الرّاجحي، النّحو العربي والدّرس الحديث: بحث في المنهج، دار النّهضة العربية، بيروت، 1986، ص 110.

* وهو المفهوم الذي وظّفه جيري فودور في كتابه .Les modalités de l’esprit

12- N.Chomsky, Règleset représentations, Editions Flammarion, Collection Nouvelle bibliothèque scientifique, Paris 1985, p 226.

13- ينظر: راي جاكندوف، علم الدّلالة والعرفانية، ترجمة عبد الرّزاق بنّور، مراجعة مختار كريّم، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس 2010، ص 369.

يمكن العودة إلى: Jackendoff, Ray, Semantics and Cognition, Cambridge, Mass., MIT Press, 1976, 1e éd., relié (ISBN 978-0-262-10027-4, LCCN 83000881).

14- Marvin.L.Minsky, Semantic information processing, Cambridge Mass, Mit Press, p.v.

*جيري فودور، فيلسوف وعالم نفس أمريكي، من مواليد 1935، باحث في مخبر متخصّص في الالكترونيات، مدرّس للفلسفة وعلم النّفس منذ سنة 1963 في معهد مساشوستس للتكنولوجيا، فقد كان من الباحثين، الذين أبرزوا مفهوم المنظرمية الذي كان متداولا في الدراسات اللسانية النفسية، وسماه بـــModularity of Mind ، وذلك في 1983.

15- حسان الباهي، الذّكاء الصناعي وتحدّيات مجتمع المعرفة، حنكة الآلة أمام حكمة العقل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2012، ص 117.

16- J. Fodor, La modularité de l'esprit: Essai sur la psychologie des facultés, collections propositions, Minuit Editeur, Paris 1983.

17- J. Fodor, La modularité de l'esprit: Essai sur la psychologie des facultés, collections propositions, Minuit Editeur, Paris 1983.

18- J.Fodor, Les modalités de l’esprit, Les éditions de minuit, Paris 1986, p 15.

19- ينظر: أنجوس جيلاني وأوسكار زاريت، الذّهن والمخّ، ترجمة جمال الدّين الجزيري، مراجعة واشراف وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، 2001، ص 05.

*وهي فكرة نعوم تشومسكي الأولية، التي بلورها في ظاهرة الإبداع.

20- George. Vignaux, Le discours, acteur du monde: énonciation, argumentation, et cognition, Editions Ophrys, Paris 1988.

21- آن ربول، جاك موشلر، التّداولية اليوم، علم جديد في التّواصل، ترجمة سيف الدّين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت لبنان 2003، ص 80.

22- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة وتعليق محمد فتيح، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1993، ص 44.